

وظيفة الأسطورة، وعلاقتها بالتاريخ.
الدكتور: لزهر مساعدي.
المركز الجامعي ع. ح. ب. ميللة. الجزائر

ملخص:

الأسطورة هي حكاية مقدسة تروي أحداث الآلهة وأنصافهم وما يرتبط بهم وعابديهم، كما يروي بعضها تاريخ هؤلاء، حتى لتنزلق إلى أسطورة أحداث تاريخية وأشخاص تاريخيين، فتتهول التاريخ وتشوّهه، لكن ذلك لا يعني أبداً أن هذا هو هدفها، بل لها أهداف أخرى وكثيرة، فهي تبليغ، وتفسر وتكشف. وسوف تحاول هذه الورقة البحثية أن تتعرض لوظائف الأسطورة، وعلاقتها بالتاريخ.

Abstract

Myth is a sacred story that recounts the events of gods, their qualities, all that is associated with them and their worshippers. Some myths tell the history of these people, and they even mythologize historical events and historical figures. Thus, they distort history. But this is not its aim at all. Myths have many other aims like informing, explaining, and uncovering things. The aim of this paper is to show the functions of myth and its relation to history.

1- وظائف الأسطورة:

مثلما تعددت تعريفات الأسطورة وخصائصها وكذا أنواعها- بل في كل جانب من جوانبها- حسب اختلاف مشارب المتناولين لموضوعها. فقدت تعددت آراؤهم أيضا في وظائفها.

فمنهم من يرى أنها " تهدف إلى تفسير شيء ما في الطبيعة كنشأة الكون أو أصل الرعد أو الزلزال أو العاصفة أو الشجرة أو الوردة و تقوم أساطير أخرى بتفسير التقاليد و العادات الاجتماعية و الممارسات الدينية ... و أسرار الحياة و الموت ... و بعض الأساطير وضعت للتعليم " ¹.

ومنهم من يرى أن أهم وظيفة تقوم بها الأسطورة هي: " الغوص و التعمق في أصل الشيء حتى يمكن امتلاكه و السيطرة عليه " ².

ومنهم من يرى أن أهم وظيفة تقوم بها الأسطورة هي: " الغوص و التعمق في أصل الشيء حتى يمكن امتلاكه و السيطرة عليه " ³.

وذهب آخرون إلى تقسيمها إلى خمسة (05) أنواع ⁴ هي:

1- الوظيفة المعرفية:

وهي تلك الوظيفة التي تشمل : التأمل ، التفسير ، التعليل ، فيها تهدف الأسطورة إلى محاولة تبسيط الظواهر بغية الوصول إلى حقيقة ما في الحاضر وتأمين المستقبل . فتصبح الأسطورة وسيلة تعليمية مؤثرة ، ذات سلطة عظيمة على النفوس .

فلم يؤتى بالأسطورة إلا محاولة لتفسير الظواهر الكونية وتبسيطها وتقريبها إلى ذهن الإنسان البدائي . وهكذا سعت الأسطورة إلى محاولة كشف النقاب عن أسرار الموت والخلود ، وهي قضايا مصيرية شغلت الإنسان وما تزال تشغله وسوف تبقى ... ، وانطلاقا من عدم تقبل العقل البدائي للموت بسهولة حظرت الأسطورة لتبين أن الموت لا يعني فناء الحياة الإنسانية، إنما القضية لا تعدو أن تكون تغييرا في صور الحياة .

كما سعت الأساطير إلى تفسير الشعائر والطقوس التي ظهرت نتيجة عجز الإنسان عن السيطرة على الظواهر الطبيعية ، حينها لجأ إلى استرضائها وترويضها بطرق عدة أهمها : إقامة الطقوس وتقديم النذور ...

وفي العصر الحديث كانت " الحاجة إلى استعمال الأساطير قد نبعت بتأثير النزعة الجديدة إلى تجلية علوم الإنسان كعلوم الأثروبولوجيا و الإثنولوجيا و علم النفس، فقد كان العلم يرى في هذه الاهتمامات حتى عهد قريب مجموعة من المواد المبعثرة لا تستطيع أن ترقى إلى مستوى العلم .فما شأن العلم بالسحر أو بعبادات القبائل

المتخلفة أو بطقوس الأديان البدائية أو غيرها من مخلفات الإنسانية المضطربة في صورها و معانيها ؟ و لكنّ البحث حين اتّجه إلى الإنسان رأى في هذه المواد المبعثرة كنوزاً من التجربة و المعرفة، فحاول أن ينسّقها في علوم استدلالية، محاولاً أن يعرف الإنسان عن طريقها، بعد أن فشل في معرفة الإنسان عن طريق العلوم التجريبية الحديثة" * .

2- الوظيفة الفكرية أو العقائدية أو الإيديولوجية:

يتفق كثير من الباحثين على أن الأسطورة كانت المعتقد الديني أو بمثابة المعتقد الديني للمجتمعات البدائية أو كانت بمثابة امتداد للفكر الديني، قد نتجت من طقوسه. إذ أن " اليونانيين أخذوا أساطيرهم بجديّة ، لأنهم آمنوا بأن الآلهة مسيطرة على القوى الطبيعية ، ولذلك أخذوا يتوسلون إليها و يدعونها لتبعث لهم الخير ، و تبعد عنهم الشر و أخذوا يقدمون لها القرابين ، و ينظمون أجمل الأغاني مادحين فيها آلهتهم " * .

في حين يشير جيمس فريزر إلى أن المجتمعات الإنسانية القديمة اعتقدت بوجود وسائل تمكنها من اتقاء شرور الطبيعة أو التغلب عليها بواسطة فن السحر ، لذا استخدمت الرقى و التعاويذ السحرية ، طلباً للغيث و التكاثر ، ونمو الزروع ** .

3- الوظيفة التكفيلية :

هناك من الدارسين من يرى أن الأسطورة لا تفسر ولا تعلل ولا حتى تحاول تبسيط الظواهر ، وإنما تكفل المحافظة على السوابق التي تسوغ الحالة الراهنة ، وبذلك تصبح الأسطورة تكفيلية ، أي أنها تدعم وتقوي وترسخ ما هو موجود .

4- الوظيفة النفسية :

تمتاز الأسطورة بتأثيرها المستمر في النفس البشرية حتى في زمن النزوع العقلاني و التقدم العلمي المذهل. فالأسطورة مع الشعر يسعيان دوماً إلى إرضاء النزعة غير العقلانية المترسخة في النفس البشرية ، كما تقوم الأسطورة بعدة وظائف في هذا المجال ، ويمكن حصرها في العناصر التالية :

أ- أنها تجسد المشاعر الإنسانية برمزياتها.

ب- أنها تسعى إلى توفير المخرج النفسي لمشاعر فعلية.

ت- أنها دوافع ذات طبع أولي بدائي تكشف وتثير العقل الباطن.

ث- أنها توحد حالة تعاطفية اجتماعية ، بتعليمنا معنى الروابط الكلية الجامعة .

ج - أنها تتخذ كوسيلة علاج، فيتيح ذاك العلاج المجال لإعمال الفكر في وضع معين كانت معطياته قبل ذلك الوقت تقتصر فقط على المعطيات العاطفية.

الوظيفة السياسية :

برزت هذه الوظيفة بشكل لافت في عصرنا ذا، إذ تلجأ السياسة إلى الإفادة من الأسطورة لخدمة أيديولوجيتها، وتسعى إلى جعل تصرف الأفراد على نحو يخدم أغراضها، وذلك باستغلال الظلال السحرية للكلمات كوسيلة لإخضاع الفرد لمشينة الدولة، فمثلاً إن الانهيار الاقتصادي الذي حل بألمانيا، أدى إلى عدم قدرتها على معالجة أزمته بأسلوب عادي بعد الحرب العالمية الأولى، فلذا نشأت الأسطورة السياسية التي لا تطالب بتحريم أفعال معينة. إنما كان هدفها تغيير الناس، بغية تنظيم أفعالهم والتحكم فيهم.

ولذلك حاولت السياسة جاهدة دائماً إلى إيجاد صيغ للإفادة من الفكر الأسطوري حتى بالاضطهاد... يقول ارنست كاسيرر: "إننا نعيش في السياسة دائماً فوق أرض بركانية، وعلينا أن نستعد لمواجهة أيه هزة، وأي انفجار، ولا يمكن لأية قوة عقلانية، في الأوقات الحرجة، أن تطمئن إلى قدراتها على الحيلولة دون عودة ظهور التصورات الأسطورية القديمة".*

فالفكر الأسطوري الذي يقوم على "أساس غيبي لا عقلائي (...). له منطقتُه المختلف تماماً عن منطق الفكر الموضوعي. و الأسطورة المكوّنة لهذا الفكر تنزع دائماً إلى إضفاء صفات قدسيّة غامضة على مواضيعها وأشياءها و أشخاصها (...). أن الأسطورة لها، عملياً، مستلزمات غيبيّة تستند إليها في الواقع، و تنعكس بواسطتها على المجتمع و على السلوك السياسي، الطبقي فيه. فالوسائل المتولدة من جرّاء الأسطورة أو المولّدة لبعضها، تتحول في المجتمع إلى أدوات إضافية للسيطرة كملكية طبقة محددة لوسائل الممارسة الأسطورية إذا جاز التعبير والافتراض".**

ونجد من بين الذين اهتموا كثيراً بالأسطورة "بيار برونال" حيث حاول جمع وظائف الأسطورة في ثلاث هي⁵:

- الوظيفة التبليغية :

بما أن الأسطورة تروي قصة، فهي تسعى إلى تبليغ شيء معين.

1 - الوظيفة التفسيرية:

إن منشأ الأسطورة يتعلق ويرتبط بما تقدمه من تفسير لظاهرة معينة.

2 - الوظيفة الاستكشافية:

تحاول الأسطورة أن تكشف عن حقائق تتعلق بالإنسان والإله تتسم بطابع القداسة الذي يمنح الأسطورة بعدا دينيا...

ومهما يكن فالأسطورة تسعى إلى التقريب بين النظرتين التراثية و اليوتوبية حيث يتخذ المخيال الاجتماعي "شكل اشتراع متطلع إلى الأمام، حيث تعبر جماعة ما عن طموحاتها غير المتحققة في عالم أفضل من عالمها، ومن دون نظرة الأسطورة التراجعية، تحرم الثقافة من ذاكرتها، ومن دون نظرتها التطلعية، تحرم من أحلامها وقد تؤدي الأسطورة في أفضل أحوالها، وظيفة تفاعل إبداعي بين دعاوى التراث واليوتوبيا"⁶.
فبالأسطورة يمكن أن ينظر إليها على أنها توسط بناء بين التراث واليوتوبيا، يبقى كليما في علاقة تواتر إبداعي.

وفي المحصلة نقول : للأسطورة وظائف كثيرة ومتنوعة ، وفي مقدمة هذه الوظائف الشرح والتفسير والإخبار و التسويغ والبرهان والاستكشاف، كما يسعى علم الأساطير المقارن إلى إيجاد العلاقات التي تربط بين بعض العادات والتقاليد المتأصلة في أكثر المجتمعات.

2- علاقة الأسطورة بالتاريخ:

تعد الأسطورة " أول نشاط مارسه الإنسان في البدء ، و بدأ مقامه على الأرض و بدأ تغريبه في الوجود ، إنها موعلة في القدم ، ضاربة بجذورها فيما قبل التاريخ "⁷ .
وانطلاقا من أن "الأسطورة نتاج جماعي .و نحن لا نعرف لأي أسطورة مؤلفاً واحداً .ذلك أنّ وراء الأسطورة رؤية شعب كامل، حاول أن يدرك المجهول و يفسره ليصل إلى القوانين الكليّة التي تدير الكون، و يمسك بالحقيقة لحظة انبثاقها و توهجها .معنى هذا أنّها ليست نشاطاً عقلياً بل هي نبوءة، نبوءة الإنسان الأوّل .غير أنّ النبوءة لا تتحقق كرسالة تمارس فعلها في التاريخ إلاّ متى أفلتت من شرط الزمن، عندها فقط لا يُدركها البلى، و هذا ما حققته الأساطير "⁸.

فهناك من الباحثين من يذهب إلى أن ما ترويه الأساطير من وقائع هي وقائع في الأصل تاريخية احتفظت بها الذاكرة البشرية الجمعية ، من غير تدوين و كتابة ، واستدلوا على ذلك بوجود كثير من الأساطير القديمة، ما تزال تحتفظ ببعض من الحقائق التاريخية الموعلة في القدم، فاعتبروا هذه النماذج الأسطورية نوعا من التأريخ البدائي ، و

ذهب آخرون إلى أن ما قد تتضمنه الأساطير من تاريخ هو في حقيقة الأمر "شبيه بالتاريخ" وليس تاريخاً، وذلك لأنه يزور ويشوه ما حدث حقيقة، إذ لا يسجل ما حدث فعلاً، وإنما ما ظنه الناس، أو اعتقدوا أنه قد حدث فعلاً⁹، فمثلاً "حركة الشعر الحديث في استخدامها الأسطورة كانت تعبيراً حضارياً شاملاً عن الاحتياجات الروحية و الجمالية العميقة الجذور في النفس العربية المعاصرة، و هي محاولة قد تأثرت بلا ريب بجهود شعراء الغرب، و لكنها لم تتوقف قط عند أعتابهم . بل أدركت أن التكوين التاريخي للإنسان العربي أكثر استعداداً لاجترار تراثه الأسطوري الذي سبقنا الغرب إلى الإفادة منه"¹⁰.

و هناك من الباحثين من يذهب إلى أن معظم الأساطير هي تواريخ أبطال تتميز بخصائص القصص التاريخية. و تاريخ الحيوانات الخرافية يقول - في هذا الصدد عن الأسطورة- "بيير سميث" : «أولاً وقبل كل شيء، ليست إلا نوعاً خاصاً من قصة نموذجها حددته تواريخ الآلهة في الميثولوجيا الإغريقية الموغلة في القدم. وعلى الرغم من أن كثيراً من الأساطير ليست تواريخ أديان، فهي على كل حال تواريخ أبطال، ولكنها تتميز بصفات الحكايات، أو الحكايات الشعبية المستوحاة من التاريخ، ثم هي تواريخ أجداد و لكنها تتميز بخصائص القصص التاريخية. و تاريخ الحيوانات المتميز بالصبغة الخرافية، و تعتمد معظم الشعوب، هي نفسها، إلى تصنيف مختلف أنواع القصص التي يسهل عليها، عبرها، تمييز درجة الأساطير.»¹¹.

ونظراً لكون الأسطورة حكاية مقدسة، يؤمن بها الإنسان، ويعتقد بصحة و صدق ما تروى فيها من أحداث، فإنها قد اكتسبت السبق واتسمت بالأصالة وعدت سبباً لنتائج و أوضاع لاحقة، و ذلك ما جعلها ذات صلة وثيقة بالتاريخ، فالاثان ينشآن عن رغبة و توق إلى معرفة البدايات و الأصول . غير أنهما يختلفان في قضية جوهرية وهي أن الأسطورة تروي تاريخاً مقدساً هو تاريخ الآلهة ؛ بمعنى أن الأسطورة ترى أن الأحداث هي نتاج مشيئة و فعل الآلهة ، في حين أن التاريخ يروي ما يتصل بالدنيا ؛ بمعنى أن التاريخ يرى أن الأحداث ما هي إلا حصيلة أفعال البشر و ضرورات التطور¹².

يقول روجي جارودي "إن التبشير اللاهوتي المزعوم للعدوانات المتكررة بالاعتماد على قراءة أصولية للنصوص الموحى بها ، يحول الأسطورة إلى تاريخ . فالرمز العظيم المتجلي في خضوع إبراهيم اللاشرطي لإرادة الله ، ومباركة كل شعوب الأرض ، كل هذا يتحول إلى نقيضه القبلي ، أي أن الأرض المغزوة ، تصبح أرضاً موعودة"¹³ ، وعليه، فإن قراءة التاريخ القديم دون أسطورة، أمر مستبعد، باعتبار الأسطورة السجل الأمثل للفكر وواقعه في مراحلها الابتدائية، حينما كان يحاول تفسير الوجود من حوله، ويحاول قراءة الواقع الاجتماعي وتغييره، هذا ناهيك عما تنقله لنا الأسطورة من بصمات وانطباعات النفس الجماعية عليها، لأن الأسطورة لا يمكن لأحد

ادعاء حق تأليفها، فهي مجهولة الأصل والمؤلف - بل وأحيانا - المنشأ والتاريخ، إضافة إلى كونها ثقافة أجيال متعاقبة، ظلت تجرح وتعدل، هذا مع عالميتها التي تجلت في قدرتها المبهرة على الانتقال عبر حدود المكان والزمان، وإمكاناتها الهائلة على التكيف بعيدا عن زمنها و خارج وطنها ، لتظل حية لدى شعوب مختلفة تتبناها في أزمنة مختلفة¹⁴.

إن التاريخ "يعتمد الدقة في تحري الحقائق ويربط بينهما مستعينا بالدليل والمنطق وهو من عمل العلماء والأفراد، أما الأسطورة فهي نتاج مخيلة الشعوب التي تطلق العنان للخيال فتأخذ مادة التاريخ وتنتج منها ما تنتج من أقاصيص دون المساس بجوهرها"¹⁵، يقول أحد الأدباء: "لقد حاولت أن أوفق بين ما يموت و ما لا يموت، بين المتناهي واللامتناهي، بين الحاضر و تجاوز الحاضر، و تَطَلَّب هذا مني معاناة طويلة في البحث عن الأئقعة الفنية، و لقد وجدت هذه الأئقعة في التاريخ و الرمز و الأسطورة"¹⁶.

خاتمة:

نختم لنقول: على الرغم من أن معظم الأساطير هي تواريخ أبطال تتناول أحداث تاريخية وأشخاص تاريخيين، فتهول التاريخ وتشووه أحيانا، لكنها تنقل مقاطع ولقطات - إن صح التعبير - من ذاك التاريخ المشوه أو الشبيه بالتاريخ - كما يراه البعض - ذلك لا يعني أبدا أن هذا هو هدفها، بل لها أهداف أخرى وكثيرة ، إن للأسطورة وظائف كثيرة ومتنوعة ، وفي مقدمة هذه الوظائف الشرح والتفسير والإخبار و التسويغ والبرهان والاستكشاف، كما يسعى علم الأساطير المقارن إلى إيجاد العلاقات التي تربط بين بعض العادات والتقاليد المتأصلة في أكثر المجتمعات.

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة في البحث :

1. ماكس شايبرو ورودا هندركس .معجم الأساطير. ترجمة حنا عبود .
2. دانيال هنري باجو . الأدب العام و المقارن . ترجمة داغسلن السيد . منشورات اتحاد الكتاب العرب . دمشق . 1970 .
3. Pierre Brunel – **dictionnaire des mythes littéraires (préface)** . du rocher, Paris – 1988
4. ديفيد وورد. الوجود والزمان والسرد. ترجمة وتقديم: سعيد الغانمي. المركز الثقافي العربي. ط1.الدار البيضاء.1999.
5. مُجَّد لطفی الیوسفی . کتاب المتاهات و التلاشي في النقد و الشعر. سراس للنشر . ط 1 . 1990 .
6. مُجَّد لطفی الیوسفی . في بنية الشعر العربي المعاصر. دار سراس للنشر. تونس. الطبعة الأولى. 1985 .
7. نضال الصالح. النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة. دار الأملية للنشر والتوزيع. ط 1. 2010.
8. غالي شكري. شعرنا الحديث ... إلى أين؟ . دار الآفاق الجديدة. بيروت. الطبعة الثانية. 1978 م.
9. عبد الملك مرتاض، الميثولوجيا عند العرب .
10. ظاهر شوكت البياتي. توأمة الأسطورة لضرورتها و مخاطرها... ينظر الموقع الالكتروني:
http://www.kitabat.com/albayati_dhaher.htm
11. صلاح عبد الصبور .الديوان. المجلد الثالث . دار العودة. بيروت. 1988.
12. الموسوعة العربية هيئة الموسوعة العربية. دار الجيل .القاهرة. 2000. ج 2 .
13. جيمس فيزر . أدونيس أوتوز . ترجمة جبرا إبراهيم جبرا .
14. آرنست كاسيرر. المرجع السابق .
15. خليل أحمد خليل. المرجع السابق.
16. فراس السواح. الأسطورة والمعنى.
17. روجيه غار ودي .الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية. ترجمة حافظ الجمالي . ط2. بيروت 1996.

18. سيد محمود القمني. المرجع السابق.
19. الموقع الإلكتروني: <http://www.annabaa.org/htm>.
20. عبد الوهاب البياتي. تجربتي الشعرية. منشورات دار نزار قباني. بيروت. الطبعة الأولى. أكتوبر 1968 م.

الهوامش

- ¹ - ماكس شايبرو ورودا هندركس. معجم الأساطير. ترجمة حنا عبود. ص 7.
- ² - دانيال هنري باجو. الأدب العام و المقارن. ترجمة داغسلن السيد. منشورات اتحاد الكتاب العرب. دمشق. 1970. ص 151.
- ³ - دانيال هنري باجو. الأدب العام و المقارن. ترجمة داغسلن السيد. منشورات اتحاد الكتاب العرب. دمشق. 1970. ص 151.
- ⁴ - ظاهر شوكت البياتي. توأمة الأسطورة لضرورتها و مخاطرها... ينظر الموقع الإلكتروني: http://www.kitabat.com/albayati_dhahe.htm
- * - صلاح عبد الصبور. الديوان. المجلد الثالث. دار العودة. بيروت. 1988. ص 180-181.
- * - الموسوعة العربية هيئة الموسوعة العربية. دار الجيل. القاهرة. 2000. ج 2. ص 284.
- ** - جيمس فريزر. أدو نيس أوتوموز. ترجمة جبرا إبراهيم جبرا. ص 15.
- * - آرنست كاسيرر. المرجع السابق. ص 369.
- ** - خليل أحمد خليل. المرجع السابق. ص 75.
- ⁵ - Pierre Brunel. *dictionnaire des mythes littéraires (préface)*. ed du rocher, Paris - 1988. p. 7 -15.
- ⁶ - ديفيد وورد. الوجود والزمان والسرد. ترجمة وتقديم: سعيد الغانمي. المركز الثقافي العربي. ط1. الدار البيضاء. 1999. ص 101.
- ⁷ - محمد لطفي اليوسفي. كتاب المتاهات و التلاشي في النقد و الشعر. سراس للنشر. ط 1. 1990. ص 132.
- ⁸ - محمد لطفي اليوسفي. في بنية الشعر العربي المعاصر. دار سراس للنشر. تونس. الطبعة الأولى. 1985. ص 144.
- ⁹ - نضال الصالح. النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة. دار الأملية للنشر والتوزيع. ط 1. 2010. ص 14.
- ¹⁰ - غالي شكري. شعرنا الحديث ... إلى أين؟. دار الآفاق الجديدة. بيروت. الطبعة الثانية. 1978 م. ص 139.
- ¹¹ - عبد المالك مرتاض، الميثولوجيا عند العرب، ص 13.
- ¹² - فراس السواح. الأسطورة والمعنى. ص 91. 92.
- ¹³ - روجيه غارودي. الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية. ترجمة حافظ الجمالي. ط 2. بيروت. 1996. ص 17.
- ¹⁴ - سيد محمود القمني. ص 22.
- ¹⁵ - ينظر الموقع الإلكتروني: <http://www.annabaa.org/nbanews/2011/04/133.htm>
- ¹⁶ - عبد الوهاب البياتي. تجربتي الشعرية. منشورات دار نزار قباني. بيروت. الطبعة الأولى. أكتوبر 1968 م. ص 34.